الكاتب: د/محمد كرادي
باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة ابن طفيل- القنيطرة- المغرب
البريد الالكتروني: allah5588@gmail.com

عنوان المقال: صورة المغرب في مرأة الرحلة الكولونيالية،شارل دو فوكو نموذجا.

تاريخ الارسال: 2019/01/25 **تاريخ القبول:** 2019/03/12 **تاريخ النشر:** 2019/04/30

صورة المغرب في مرآة الرحلة الكولونيالية، شارل دو فوكو نموذجا

The image of Morocco in the mirror of the colonial journey، Charles de Foucauld is a model

ملخص:

تعد الرحلات الأوروبية نحو شمال إفريقيا خلال القرن 19م ومطلع القرن العشرين فرصة نادرة تجسد التفاعل بين الذات الواصفة (الرحالة) والآخر الموصوف، فهي مناسبة مهمة لتجميع عدد من الانطباعات والتصورات العامة، وفرصة تسمح بتقديم صورة ما عن ذلك الآخر (المغاربي) الذي طالما شكل مصدر الإثارة والخيال، في سياق تاريخي دقيق حافل بالأحداث السياسية والعسكرية.

إذ لم يُقحم الفضاء المغربي بشكل واضح داخل الأدب الفرنسي إلا مع تزايد أهميته السياسية والإستراتيجية نتيجة الأحداث المتسارعة التي عرفها خلال القرن التاسع عشر، ابتداء بهزيمة إيسلي سنة 1844م، ثم هزيمة تطوان 1859-1860م، ما حوله إلى مختبر أبحاث ودراسات متنوعة المشارب والتخصصات بغية معرفة طبيعة أنساقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتكويناته القبلية وعلاقاتها بالمخزن. فشكلت الرحلة إلى المغرب إحدى آليات البحث والكتابة عن هذا الفضاء، ووسيلة للتعرف على خباياه وبُناه العتيقة، الشيء الذي يفسر توافد العديد من الرحالة محملين بهواجس وطموحات لا تخلو من أبعاد استعمارية، وفي مقدمة هؤلاء نذكر "شارل دو فوكو" الذي مكنه تنكره في هيأة عابر سبيل يهودي التغلغل داخل أكثر المناطق عزلة، وتدوين أدق التفاصيل في مؤلف شهير حمل اسم (Reconnaissance au Maroc)، حمل ملاحظات متنوعة عن الأماكن التي مر بها وأخلاقيات سكانها وسلوكياتهم،

وسار على نهجه عدد كبير من رحالة يحدوهم طموح الشهرة والاستكشاف، مشكلين بذلك الطلائع الأولى للحملة الفرنسية في المغرب، ومنتجين صورا لم تعبر عن الواقع المغربي بقدر ما شكلت تجسيدا لمشروع استعماري رام إلى تشويه الآخر ونعته بأوصاف التوحش والبدائية والعتاقة، لتبرير كل العمليات العسكرية المزمع تنظيمها بعد ذلك.

الكلمات المفتاح: الرحلات-الاستعمار- الصورة- المغرب- غرائبي- شارل دو فوكو.

Abstract:

European journeys to North Africa during the 19th century and the early 20th century were a rare opportunity to embody the interaction between the self-describing (travellers) and the other described. It was an important occasion for gathering a number of public impressions and imaginations, and an opportunity to picture the other (Maghreb), which has been the source of excitement and imagination, in a delicate historical context replete with political and military events.

Moroccan space has not been clearly inserted into French literature only after its increasing political and strategic factors. These reasons were triggered by the accelerating events of the 19th century, beginning with the defeat of Isley in 1844, and then the defeat of Tetouan in 1859. These events transformed Morocco into a laboratory of research and studies of various disciplines in order to know the nature of its political, economic and social patterns, its tribal formations and its relations with the Makhzen. The journey to Morocco was one of the mechanisms of research and writing about this space. It was also means of identifying Moroccan mysteries and ancient builders. These research and writing explained the influx of many pilgrims loaded with ambitions that were not devoided of colonial dimension. One of the most famous travellers was Charles de Foucauld, played the role of a Jewish traveller, infiltrated into the most remote areas and wrote a book named "Reconnainssance au Maroc". In this book he gave a detailed

and different information about the places he had passed by and he also gave a detailed account about the inhabitants' behaviours and morals. Many other travellers who had the same ambition of fame and exploration were the first vanguard of French campaign against Morocco. They not only produced irrelevant pictures and descriptions that did not reflect the Moroccan reality, but also they started a strong campaign against Morocco planning for a colonial project which undermined Moroccans and aimed at attacking them and considered them barbaric , dump and primitive. All these efforts had been done just to justify all the military operation to be organized afterwards.

Keywords: journeys, colonization, photo, Morocco, exotic, Charles de Foucauld.

تقديم:

من المعروف أن اهتمام الأوروبيين بالمغرب وشمال إفريقيا عامة اندرج في سياق تاريخي محدد ومحسوم فيه الآن، وهو السباق المحموم لاكتشاف المناطق المزمع استعمارها، وتبعا لذلك نظمت الدول الأوروبية رحلات استكشافية متعددة الانتماءات والتخصصات، استحوذت فيها فرنسا على النصيب الأوفر، بشكل يعكس اهتمامها بالمنطقة منذ احتلال الجزائر سنة 1830م، والتي تحولت –منذ ذلك الحين- إلى مركز انطلاق جُل الرحلات الفرنسية نحو باقي الأقطار، منها المغرب الذي ظل إلى حدود القرن 19م محافظا على كيانه السياسي -ولو شكليا- بعيدا عن التدخل المباشر للأوروبيين إلى انهزامه في واقعة إيسلي سنة 1844م، ثم حرب تطوان 1859-1860م التي أزالت حجاب الهيبة عن البلاد حسب تعبير الناصري[i]. فانتقل إلى المغرب منذ ذلك الحين نخبة من "الحجاج الأوروبيين" تسبقهم مخيلة مُحملة بجملة من الصور والأفكار تكونت من خلال ما سمعوه من روايات وأساطير عن هذه الإيالة الشريفة، و"مدفوعين بالامتيازات التي وفرتها ظروف القرن 19م والمتمثلة في: التطورات الاستثنائية لوسائل النقل والمواصلات...(مما) سيؤدي مباشرة إلى تشجيع وتسهيل حركة الكشوفات الجغرافية، ومنها الرحلات الاستكشافية"[ii]. هذا في الوقت الذي استطاعت فيه الطباعة تحويل هذا الجنس الأدبي (أدب الرحلة) إلى أحد أكثر الكتب رواجا وشيوعا، نتيجة غزارة

النصوص المنشورة، ما منحها شعبية كبيرة بين صفوف القراء. إذ كانت الرحلة تُطبع وتنشر بعد وقت قصير من عودة الرحالة، إما على شكل مؤلف مطبوع، أو في إحدى المجلات[iii] تحت إشراف جمعيات جغرافية معروفة قامت بدور مزدوج، أولها دعم واحتضان المستكشفين المهووسين بالرحلات والمغامرات، وثانيها النشر الفوري لهذه الأعمال ضمن مجلات متخصصة[iv].

ساهمت هذه المنشورات وغيرها في تغطية وتشجيع حركة الاكتشافات التي تسارعت وتيرتها في الربع الأخير من القرن 19م، وأضحى المغرب في المحصلة ما تنقله أوراق هؤلاء الرحالة من أسطر ورسوم وصور. صور مشوهة وأحادية الجانب حولت المجال المدروس إلى بلد غرائبي وبدائي لا يختلف كثيرا عن أساطير القرون الوسطى، الشيء الذي وضعنا أمام خطاب استعماري واضح المعالم تحوّل إلى قطاع وظيفي مهمته البحث عن "روح المغرب" كما عبّر ذلك جورج هاردي[v]، والفضل في ذلك يعود إلى رائد الرحلة الكولونيالية "شارل دو فوكو"، إذ كان في مقدمة الرحالة الذين توغلوا في عمق المغرب بعيدا عن المسالك الاعتيادية، فجاءت رحلته غنية بالملاحظات التي سجّلها عن الأماكن والأخلاقيات والسلوكيات، وسار على نهجه فرنسيون كثر دمغوا سكان البلاد وتاريخه بنعوت وصور استمرت طويلا داخل الذاكرة الجماعية الأوربية. وبالتالي كان هدفنا من هذه الدراسة التنقيب عن جذور صورة المغرب في كتب الرحالة الأوائل من خلال ما خلفوه من انطباعات وأحكام، ومحاولة ربطها بسياقها التاريخي المثقل بالهواجس والتنافس الاستعماري. فما هي الدوافع الحقيقية التي حكمت توجهات هؤلاء الرحالة؟ وإلى أي حد يمكن الاعتماد على مخلفاتهم في بناء حصيلة تاريخية علمية بعيدًا عن السطحية والتجريد؟

1- المغرب قبلة رحلات متعددة الدو افع

مع بزوغ أولى بوادر اختلال التوازن بين شمال وجنوب حوض البحر الأبيض المتوسط انطلقت عدد من الرحلات الأوروبية نحو المغرب، شارك فيها فرنسيون وألمان وإيطاليون وروس وبريطانيون[vi]، حيث توافد عدد من الرحالة الإنجليز ابتداء من القرن 16م، كان منهم التاجر والسفير والمغامر والجاسوس والمستكشف والمبشر والأسير والرسام والباحث، نشروا ملاحظاتهم ومشاهداتهم وانطباعاتهم على شكل كتب ومذكرات ورسائل وتقارير مطولة. وكيفما كان حظ هذه الكتابات من الموضوعية والدقة، فإنها لعبت دورا مهما في استصدار

كثير من المواقف والأحكام التي اتخذتها أوربا إزاء المغرب عبر التاريخ، كانت أولاها على يد "جيمس آلدي" (Jams Aldy) الذي قام برحلتين إلى المغرب سنتي 1551م-1552م[vii].

غير أن الرحلات الفرنسية تبقى الأكثر كما وكيفا، انطلقت تاريخيا منذ القرن 15م، لكنها اتسعت واتخذت أبعادا خاصة مطلع القرن 19م[viii]، فمع تزايد الانشغال الفرنسي بتحركات الأمير عبد القادر الجزائري على الحدود الشرقية للمغرب، صدر كتابان من الحجم الكبير تعرضا في ثناياهما لأحوال المغرب، أولهما كتاب عن الصحراء الجزائرية للكاتب "ألكسندر دوما" (Alexandre Dumas)، خصص فصله الثالث والأخير للحديث عن واحات توات والجنوب الشرقي للمغرب، وثانيهما للكاتب "إميلين رينو"(Emilien Renou) بعنوان: "الوصف الجغرافي لإمبراطورية المغرب" دوّن فيه صاحبه مجمل ما ورد في الكتب القديمة والحديثة وما التقطه من الاستعلام وما استقرأه من ذلك كله، مصرحا "بأن كل ما يتعلق بسكان إمبراطورية المغرب لا يُعرف عنه إلا القليل"[ix]. إذ ظل المغرب إلى حدود أواسط القرن 19م بلدا قريبا ومجهولا في الآن نفسه، وهو ما عبر عنه الفرنسي "أوغيست بومييه" (Auguste Beaumier) في كتابه "موجز أوصاف المغرب" متسائلا: "أليس من الغريب أن يكون قُطر على هذا المستوى من الأهمية والخصوبة والجوار لأوربا، مازال مجهولا إلى هذه الدرجة؟"[x].

يبدو أن اقتصار رحلات النصف الأول من القرن 19م على مجال جغرافي ضيق لا يتجاوز المسالك الآمنة والمناطق التي تتجذر فيها سلطة المخزن قد ساهم في تعزيز هذا الغموض، لكن تصاعد وتيرة التنافس الاستعماري ستدفع بالمستكشفين نحو مناطق أبعد، حيث لاحظ "عبد الله العروي" أن مجال حركة الاكتشافات بالمغرب ظل منحصرا إلى سنة 1840م في المناطق الشمالية فقط، دون تجاوز مثلث طنجة- تطوان- العرائش، باستثناء دخول عابر لمدينة الرباط في بعض الحالات، قبل أن يتغير هذا الاختيار انطلاقا من سنة 1880م، فبدأ الشروع في اكتشاف الجهات الصحراوية مع بعض الجولات القصيرة في الجبال التي شُرع في استطلاعها خلال السنوات اللاحقة[xi].

هكذا ساهم احتدام الصراع الامبريالي خلال الربع الأخير من القرن 19م في حدوث طفرة كبيرة في الدراسات الميدانية التي تميزت بغلبة الطابع الاستخباري وبالالتقاط السريع للمعلومات المستمدة من تجوال الرحالة الذين كانوا يجوبون المغرب في جميع الاتجاهات كل واحد لحساب دولته[xii]، فكانوا جميعا مشاهدين ثاقبي الملاحظة، ومن هذه الملاحظات إفادات كثيرة

بل وعظيمة الشأن في معرفة الأماكن، وأنماط اللباس، وأنواع السلاح المتداول، وطبيعة العلاقات التي تقوم بين الأشخاص الواقعين في مجال الملاحظة[xiii]. لكن أعمالهم لم تخل من أغراض استعلامية واضحة لا تحتاج إلى مجهود فكري لاستجلاء دوافعها الكولونيالية، ما يفسر توافد المزيد من الرحالة الذين جابوا ربوع الإيالة الشريفة خلال القرن 19م كما هو مبين في الخريطة الآتية[xiv].

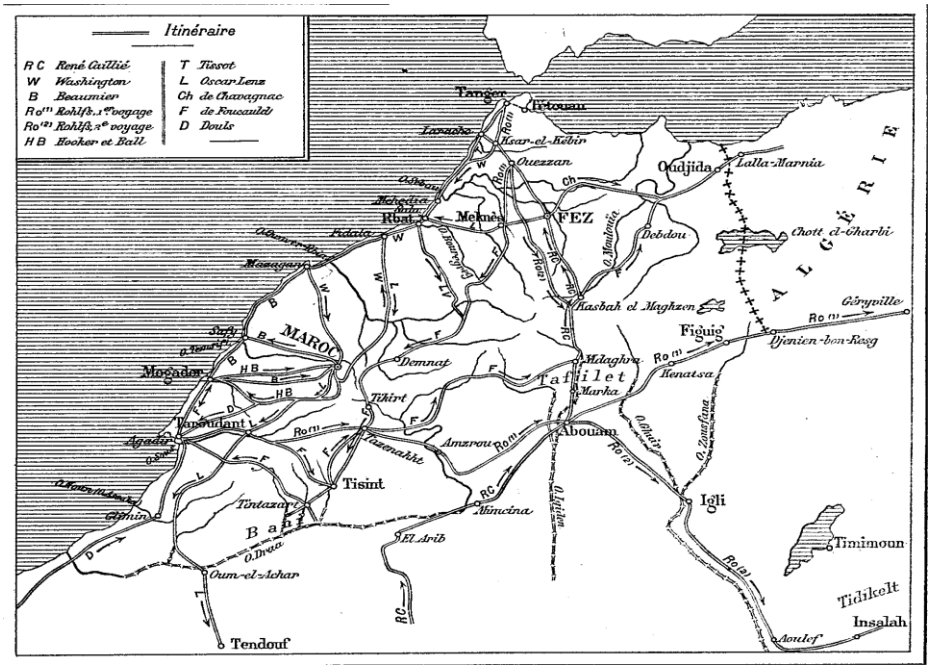

يقول عبد الله العروي: "من سوء حظ المغرب أن تاريخه كتبه لمدة طويلة هواة بلا تأهيل: جغرافيون أصحاب أفكار براقة، موظفون يدّعون العلم، وعسكريون يتظاهرون بالثقافة...". تحيلنا هذه الشهادة إلى مسألتين أساسيتين أولهما غزارة كتابات غير المتخصصين الذين اهتموا –بشكل أو بآخر- بتاريخ المغرب، وثانيهما امتزاج البعد العلمي بالسياسي والعسكري. ففي خضم التحولات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي تمخضت عن الثورة الصناعية اتجهت أنظار الدول الاستعمارية وفي مقدمتها فرنسا صوب القارة الإفريقية لتنفيذ ثلاثة برامج متكاملة الأهداف والنتائج:

أولا: البحث الدقيق في أحوال المجتمعات واستكشافها ودراستها.

ثانيا: إيجاد أسواق جديدة في القارة الإفريقية.

ثالثا: التأسيس للغزو العسكري واستغلال موارد القارة[xv].

فتقاطر على شمال إفريقيا رحالة دفعهم حب المغامرة نحو ارتياد المجهول واكتشاف الغريب والخروج عن المألوف، وآخرين حركهم البحث عن مصادر الثروة والمال أو السعي للحصول على جائزة معينة، وهناك من له أهداف دينية واضعا على عاتقه مهمة التبشير لنشر عقيدته وإيديولوجيته، ومنهم من قاده فضوله العلمي أو إغراءات ونزعات استعمارية بتقديم معلومات مختلفة حول المناطق التي زارها أو سيزورها تمهيدا للسيطرة عليها[xvi].

ساهم توافق الطموحات الشخصية للرحالة مع الأطماع الامبريالية للدول الرأسمالية في انطلاق عدد من الرحلات الموجهة نحو المغرب لهدف واضح محدد سلفا وهو: جمع أكبر قدر من المعلومات عن المنطقة المستهدفة خدمة للفكر الاستعماري الأوروبي، فدراسة الإنسان عن قرب تمكن من معرفة نقاط قوته وضعفه، وبالتالي العمل على تفكيكه وإضعافه من الداخل تجنبا لأي نوع من المقاومة التي من شأنها أن تواجه قوات الاحتلال. إضافة إلى جمع المعلومات عن الطرق والمسالك والمواقع الإستراتيجية، وكذلك الاهتمام بالموارد الاقتصادية بما فيها الثروة المعدنية[xvii]، فانصبت اهتمامات الرحالة على الأوصاف الجغرافية والقياسات المتعلقة بالطول، والعرض، والمسالك، والارتفاعات، أكثر مما اهتمت برصد المجتمع المغربي من حيث طبيعته، ومؤسساته السياسية، وعاداته الاجتماعية، وطقوسه الدينية. وأمام هذه الصورة المبتورة بقي المغرب عبارة عن مجال يختزن مجموعة من الثروات الطبيعية دون القدرة على تقييم حجمها ولو بشكل تقريبي، سوى بعض الملاحظات العامة والفضفاضة، كتلك التي سجلها "جول إركمان" (Jules Erckmann) الذي رأى أن الاقتصاد يعتمد بالأساس على الزراعة وتربية الماشية، مميزا بين "بلاد الماء" أي المناطق المسقية و"بلاد البور" المعتمدة على مياه الأمطار[xviii]، مع الإشارة إلى الأهمية الفلاحية للمغرب الساحلي مقارنة بتونس والجزائر، لتوفره على سلاسل جبلية أكثر ارتفاعا تتخللها مجاري مائية كثيرة وغنية، بالإضافة إلى ذوبان الجليد الذي يعطي مصدرا إضافيا للماء، خاصة في الفصول التي تقل فيها الأمطار وحيث يصبح الماء مسألة حيوية[xix].

هذه الصورة السطحية تمتد إلى النشاط الصناعي الذي تم التقليل من أهميته، حيث اعتبره "أوگستان برنار" **(Augustin Bernard)** مسألة لا تستحق الذكر باعتبارها صناعة عائلية تتمركز بالأساس في بعض المدن المغربية، وحاول في نفس الوقت أن يعطي تقسيما للعمل بين المغاربة اليهود والمسلمين: فاليهود كانوا مختصين في التجارة والحدادة وصياغة المجوهرات، في حين تخصص المسلمون في النسيج والحرف والبناء[xx].

لم تهدف هذه الرحلات التي جابت المغرب من أقصاه إلى أقصاه إلى جرد خيراته فقط أو الدخول في حوار ودي مع سكانه، بل استهدفت على الخصوص تشويه صورته وإفساد أهله وعلاماته وأشيائه. وعدا استثناءات نادرة، فإن التنقل داخل هذا البلد بِنِيَّةِ الكتابة دفعه حسب "محمد العلوي البلغيتي" مرأيان في غاية الوضوح هما:

- السفر بحثا عن الهوية.
- السفر لملاحقة السراب الشرقي[xxi].

2- الرحلات الاستكشافية و انحراف الصورة

دفع غزو الجزائر بالوعي الفرنسي إلى الاهتمام بالمغرب إلى أقصى حد، بعدما حكى كثير من الرحالة قصصا مبهرة ومقلقة خلال عبورهم للحدود الغربية للجزائر، فقدم الرحالة هذا البلد المجاور كمملكة عدائية تثير القلق، تماما كمنطقة الشرق المتوحش التي ترفض إفشاء أسرارها[xxii].

إذ لم يستطيع زوار المغرب التخلص من نظرتهم التقليدية وموروثهم المِيثي الذي ينتح من أسطورة الشرق، بكل ما يمثّله -هذا الشرق- من اختلاف وسحر وغموض، على نقيض أبسط المعطيات الجغرافية. فالمغرب يقع في أقصى غرب القارة الإفريقية، بل هو أكثر غربا من فرنسا نفسها، لكن ذلك لم يمنعه من أن يُدرج دوما كقطعة من الشرق. فما هو المحدد الذي تم الاعتماد عليه لموقَعَةِ المغرب؟

يتصدى "راوول ألان" (Raoul Alain) إلى هذا السؤال بالقول:" إن الشرق ليس معطى جغرافياً، فهو لا في الشرق ولا في الغرب، بل هو في مكان آخر وفي الآخر البعيد جدا، إنه في الغريب والأجنبي"[xxiii].

بهذا المعنى، أصبح المغرب شرقا قريبا ومجهولا في آن واحد، فنتيجة العمليات العسكرية والأبحاث الميدانية التي استقبلها خلال ق19م، تحول المغرب إلى بلد غرائبي رومانسي[xxiv]، راقَ

لبعض الكتاب تشبيه تأخره في شكل أميرة حسناء نائمة تنتظر الفارس الذي سيوقظها بلباقة، إنها حكاية مثيرة وشيقة سواء بالنسبة للسياح الذين يبحثون عن كل ما هو غريب، أو بالنسبة لرجال الأعمال الباحثين عن توظيف مضاربة أو عن ربح تقاعد مريح[xxv].

وعلى ما يبدو، فإن جمهور القراء الأوربي وبموازاة الحملة الامبريالية على الشعوب القابعة ما وراء البحار، كان يرغب في استهلاك المزيد من المواضيع الغرائبية، وأكثر من ذلك يبحث عن شرق جديد وعن ذاكرة جديدة يستطيع بواسطتها قياس المسافة التي تفصله عن باقي الشعوب الأخرى، فكانت هذه الكتابات تزيد من تضخم صورة الأنا واختزال صورة الآخر[xxvi]، فحُجّاج القرن19م لم يكونوا قط يبحثون عن حقيقة علمية بقدر ما كانوا يبحثون عن حقيقة مدهشة، خاصة لدى الفرنسيين المهتمين بالأدب ممن استغلوا الشرق في أعمالهم لتبرير مآربهم الوجودية[xxvii]، وإضفاء طابع المغامرة والاستكشاف مكان الغزو والاحتلال.

ساعد في انتشار هذه الصور المبالغة عدة عوامل أهمها: بقاء المغرب إلى حدود نهاية القرن 19م بلدا مجهولا في غالبيته العظمى من حيث مؤسساته الاجتماعية والدينية والسياسية، إذ ظلت المقاربة الجغرافية هي الأداة الموظفة في ميدان الرحلات الفرنسية خلال هذه الفترة، في محاولة لترجمة الواقع المرئي. وقد ساهمت ظروف عدم الاستقرار التي أنجزت فيها تلك المقاربات في جعل الكثير من المعلومات التي دوَّنها عدد من الرحالة مستقاة مما قدمها لهم مرافقوهم (الزطاطة)، بل الأدهى من ذلك أن بعضهم ألف حول المغرب كتبا بناء على الروايات الشفوية دون أن تطأ أقدامهم أرض المغرب، مثل "أوگيست موليراس" (Auguste Moulièras) الذي ألف كتابه المشهور "المغرب المجهول" سنة 1905م بالاعتماد على معلومات "درويش موهوب" اسمه "محمد بن الطيب" الذي تجول في الريف 1872م- 1883م، وهو كتاب مليء بالأخطاء المعرفية والجغرافية[xxviii]. هذا دون أن ننسى جهل الأوروبيين بلغة البلاد واعتمادهم رغم ذلك في كثير من الأحيان على عدد من الروايات الشفوية التي تحتاج إلى تأويل وسند علميين، ذلك لأن التحري والاستفهام الشفوي يفتح إمكانية التحريف والخطأ عند كل من المستفهِم والمستفهَم[xxix].

لكن ذلك لم يدفع الرحالة إلى التأني ودراسة "الحقيقة المغربية" دراسة علمية بالاعتماد على وثائق تاريخية تبين واقع البُنى في هذا البلد، بقدر ما دفعهم إلى اللهث وراء أي معلومة كيفما

كان مصدرها ومرجعيتها، رغبة في كتابة روايات شيقة ومثيرة تصيغ صورة مغربية مواكبة للمخططات والمشاريع الاستعمارية.

هكذا، وابتداء من النصف الثاني من القرن 19م بدت "الحقيقة المغربية" لدى الرحالة الفرنسيين حقيقة معروفة وجديدة في نفس الوقت: معروفة لأن هؤلاء الكتاب لم يستطيعوا الانفلات أو الاستقلال عن تلك النظرة التي ورثوها عن المغرب الهمجي والمتعصب، وبلغة مختصرة البلد المنتمي إلى العصور الوسطى، وجديدة لأنهم لم يشهدوا أوج وذروة الحضارة المغربية، بل شاهدوها في حالة أفولها واحتضارها، لهذا اكتشفوا "وضعا مزريا" عمل على محو ملامح تلك الحضارة العريقة التي عرفها المغرب قبل الانحطاط. ويمكن القول مع سعيد بن سعيد العلوي: أن الرحلة الكولونيالية لم تستطع أن تتخلص من سلطة موروثاتها الثقافية ولا أن تطوي عنها ثوب الروافد الإيديولوجية الذي ظل يلفها بإحكام شديد[xxx].

نشأت صورة المغرب ضمن هذه الرحلات في أحضان الخرافة التي كونها الغرب المسيحي عن الشرق الإسلامي، والتي تعود إلى أيام الحروب الصليبية والصدام مع العثمانيين، مما أحدث ازدواجية خاصة تمتزج فيها الأحقاد القديمة باستخفاف عصر الأنوار ورومانسية القرن 19م. رغم كون اتصال الرحالة الفرنسيين بأرض المغرب وأهله كان قادرا على نشأة معرفة حقيقية ومضبوطة بجغرافيته ومجتمعه، لولا تلك الصورة القاتمة الموروثة عن العهود السالفة والتي ظلت جاثمة على القلوب والعقول[xxxi].

هكذا، فإن أمكننا الركون إلى سلامة وصف الأمور الطبيعية والمادية بهذه الرحلات[xxxii]، فإنه يتعين الحذر من وصف الأمور الدينية والاجتماعية والسياسية، التي لم تسلم من الخلل والشطط، وظلت مرتعا للأحكام المسبقة والزائفة، خاصة أن هذه الرحلات تمت وشمس الحضارة ببلاد المغرب على أطراف النخيل، فتعارضت فيها معاينة الواقع البئيس مع استحضار الماضي المجيد، وحفلت بنعوت تحقيرية ومشاعر النفور والتسليم بعثرة الجد، واليقين بالخراب المبين[xxxiii] الذي كان من خلال هذه الأوصاف جزءا لا يتجزأ من الشرق الرحب، محتفظا بذلك في الوعي الفرنسي على الخطوط الأساسية لهذا الشرق المتعارف عليه، هذا الشرق الرومانسي الذي خلقته أعمال رحالة القرون الوسطى والرومانسية بفرنسا، هذه الصورة التي غذتها وساهمت فيها الأعمال المستلهمة من الحضارة الاسبانية-العربية المجسدة في صورة مغرب ثائر وعدائي وكآخر معقل لحضارة ترفض أن تموت[xxxiv].

فجاءت النتيجة في شكل صورة ضبابية لسراب الشرق الذي طالما غذى المخيلة الجماعية الفرنسية وساهم في تشجيع فكرة الحضور الفرنسي فوق هذه البقعة المنسية من التحولات العميقة التي شهدها العالم الرأسمالي، هذا ما جعل "سعيد بنسعيد العلوي" يرى بأن هذه الأسفار المكتوبة عن المغرب تفيدنا في معرفة سلوك المشاهِد أكثر مما تفيدنا في التعرف على موضوع مشاهدتها، وتخبرنا عن الذهنية التي ترى أكثر مما تخبرنا عما هو واقع في حال رؤيتها. ويبدو أن هذه الملاحظات تصدق على ما أجمع الدارسون على اعتبارها أهم الرحلات الفرنسية المعاصرة، وهي رحلة "شارل دوفوكو" (Charles de Foucauld) "استكشاف المغرب" [xxxv].

3- صورة المغرب في رحلة شارل دو فوكو

أ- وصول شارل دو فوك ولى المغرب

تعود أولى خيوط اتصال "شارل دو فوكو" بشمال إفريقيا إلى سنة 1880م حينما قررت الدوائر العسكرية إرساله إلى فيلق الخيالة الرابع برتبة ملازم بالجزائر. شكل هذا الحدث حدا فاصلا في مسار حياة "دو فوكو" لتتحول الجزائر إلى مكان لإعادة اكتشاف الذات المناضلة والمؤمنة أيضا، ومما يدل على ذلك بالبقاء داخل الجزائر رغم إقصائه من الجندية، حيث شارك في إخماد ثورة "بوعمامة" سنة 1881م[xxxvi]، وفي هذه اللحظة بدأت تعتري "دو فوكو" بعض التغييرات كعشقه للشرق لدرجة يمكن معها القول أنه ولد من أجل أن يسكن هذا الشرق الذي افتتن بجماليته وببساطة حياته وبدائيته[xxxvii].

بعد القضاء على ثورة "بوعمامة" تحول فكر "دو فوكو" إلى القيام برحلة إلى المغرب بغية التعرف على هذا البلد المجاور، رغم معارضة السلطات العسكرية وترددها في الموافقة على منحه رخصة لذلك، فاضطر إلى الاستقالة للقيام برحلته في زيه المدني[xxxviii].

لم يكن" دو فووكو" في حاجة إلى من يوافقه على رحلته نحو المغرب لقناعته بأن فرنسا لابد من أن تحتاج يوما إلى احتلاله، وهي قناعة لم يتردد في تصويرها جغرافيا عن طريق تشبيه شمال إفريقيا بطائر فرنسي صدره الجزائر وجناحه الأيمن في تونس والأيسر في المغرب من خلال قوله: "لا يمكن للطير الفرنسي أن يبقى دون جناحيه"[xxxix]، وهي قناعة ازدادت ترسيخا بعد لقاء "دو فوكو" بالجغرافي والمكتشف ذي الأصول الإيرلندية "أوسكار ماكارتي" (Oscar Mac-carthy) رئيس الجمعية الجغرافية الجزائرية[xl]. حيث أبدى تحمسه لمشروعه الجريء المتعلق باكتشاف المغرب ذلك البلد المجهول.

لكن قبل ذلك كان لزاما على "دو فوكو" الاستعداد لمغامرته المغربية انطلاقا من تعلم اللغة العربية والدين الإسلامي، إلى جانب العبرية، مستغرقا في ذلك سنة كاملة[xli]، واختار - تبعا لنصائح أوسكار ماكارتي- دليله اليهودي "ماردوشي أبي السرور" (Mardouchée aby serour) متنكرا في زي يهودي لتسهيل التحرك داخل المجال المغربي دون أن يكون محط انتباه السكان المحليين[xlii]. وبالتدريج تحول "دوفوكو" إلى عابر سبيل بهيئة رجل فقير يتبع دليله في جميع الطقوس والشعائر اليهودية لدرجة عجز فيها أحد الضباط الفرنسيين بتلمسان عن التعرف عليه وعلق ساخرا "أُنظروا إلى هذا الرجل اليهودي يجلس القرفصاء إنه يشبه القرد"[xliii].

وصل "دو فوكو" إلى المغرب قادما من الجزائر يوم 20 يونيو 1883م[xliv] في ريعان شبابه وهو لا يتجاوز الرابعة والعشرين، وجاب أرجاءه مستفيدا من ضيافة بعض التجمعات اليهودية المنتشرة به. وأمام استحالة عبور الريف أخذ الطريق إلى فاس، مفضلا اكتشاف الشرق قبل الذهاب نحو الجنوب[xlv]، معتمدا في سبيل تأمين مسار الرحلة على عدد من الزطاطة، كما بحث في مختلف القرى التي زارها عن حماية الزعامات المحلية التي تحكمها. فوصل إلى مكناس في 27 غشت، تم توجه تدريجيا نحو الجنوب رغم التخوف الشديد لأبي السرور. وفي طريق رحلته سجل كل ملاحظاته في كتيب صغير خبأه في راحة يده، أدرج فيه جميع ملاحظاته وتصاميمه خِفية من أي مراقبة، وفي الليل أعاد تحرير ما تم تدوينه في أوراق أكبر حجما[xlvi].

اخترق "دو فوكو" جنوب المغرب إلى حدود تيزنيت الواقعة بين "طاطا" و"فم زكيد" قبل أن يعود أدراجه بسبب الأخطار المتزايدة وقلة التمويل، خاصة بعد تعرض قافلته للسرقة[xlvii]، فلجأ رفقة أبي السرور إلى الاحتماء بالطائفة اليهودية بالمنطقة قبل العودة إلى الجزائر بعد حوالي أحد عشر شهرا قضاها بالمغرب بدل الخمسة التي كانت مبرمجة سلفا[xlviii]، امتدت من 20 يونيو 1883م إلى 23 ماي 1884م تنقل خلالها بين قرى ومسالك المغرب الصعبة، جعلت مؤلفه يحتوي على قدر كبير من المعلومات المتنوعة، خاصة الجغرافية والإثنولوجية، مكنته من الحصول على الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية بباريس 1885م[xlix].

وعلى ما يبدو فقد تركت رحلة "دو فوكو" المغربية آثارا واضحة على شخصية المغامر الشاب، فبعد عودته إلى فرنسا لم يطق الحياة الباريسية الباردة، فقرر العودة من جديد إلى الصحراء من بوابة الجزائر في 14 شتنبر 1885م[l].

ب- صورة المغرب عند دوفوكو

احتفظ كتاب "دو فوكو" إلى يومنا هذا بقيمة علمية كبرى، لتميزه بدقة الملاحظة والوصف إلى جانب ما يرافق نصه من رسوم وخرائط وأرقام، كما اهتم بالبيئة الطبيعية، فوصف التضاريس والغطاء النباتي ومجاري المياه. واهتم بالسكان فذكر القبائل ووطنها داخل المجموعات الكبرى[i]. فاعتبر بذلك من أوائل الرحالة الذين ساهموا في صياغة الصورة المغربية، سواء تعلق الأمر بالمغرب الكهل أو بالمغرب الجديد[ii].

تتمحور رحلته حول نصين: نص يعبر عن المعرفة الجيو-إثنوغرافية التي جمعها عن المغرب أرضا وشعبا، حيث استطاع من خلال تنكره التسرب إلى الأحكام القبلية التي كانت سائدة في الموروث الثقافي الفرنسي بتأكيد مفاهيم المغرب العجائبي والمتعصب والهمجي. إنه نعت المغرب الرافض والغريب، ومستبطن العداء لكل ما هو أجنبي باعتباره غازيا. أما النص الثاني الذي يتمركز حول خطاب "دو فوكو" فيكمن في "سيرة السفر" أو حسب تعبير عبد الأحد السبتي (Le récit du voyage)، وهي علاقة مبنية على نموذج مذكرة الطريق، حكى فيها تفاصيل الرحلة وما عاشه خلالها. وبالتالي فإن ما يميز رحلة "دوفوكو" هو أنه قدم من خلال تداخل البعدين معا وثيقة عن تاريخ الرحلة في مغرب ق 19م ذات قيمة توثيقية تجعل منها لا مجرد أداة للملاحظة فقط، بل موضوعا إثنوغرافيا غنيا[iii]، فبتعمد "دوفوكو" السفر خارج المحاور الطرقية الكبرى، استطاع إبراز مختلف تناقضات المجال المغربي، وتباينه الكامل عن فرنسا، عبر ابتداعه لمفهوم "السيبة" الذي جعله مرادفا للثورة البربرية، والتي تحدد الاختلاف بين العربي والبربري، وبين السهل والجبل. حيث جاهد "دو فوكو" نفسه لإبراز الطابع الفوضوي والبدائي للقبائل تمشيا مع الإطار العام الذي بناه لصياغة نظرية مغربين: مغرب السيبة ومغرب المخزن، واللذين يحكمهما الاستسلام لأية قوة منظمة وقادرة على قيادة الجماعات، وهنا تتجسد النظرة الاستعمارية لـ"دو فوكو"، الذي يمهد في العمق لفتح الطريق للاستعمار الفرنسي بالمغرب[iv].

نحن إذن أمام جهاز مفاهيمي وأمام خطاب استعماري أبى من خلاله "د وفوكو" إلا أن يُظهر السلطان -في إطار هذه الثنائية- إنسانا طاغيا، وفي نفس الوقت تنقصه الإمكانيات والوسائل، وذلك بهدف تصوير السلطان في شخصية المنتظر للمخلص والمنقذ الفرنسي، الحامل لرسالة الأمن والوحدة التي استحال على السلطان تحقيقهما، فهو ضعيف الشخصية والحيلة معا، وهو ما عبر عنه "دوفوكو" بقوله: "لا توجد أبدا في بلاد المخزن أداة إدارية ممتدة على مناطق

شاسعة...لكل إقليم قائد معين مباشرة من طرف السلطان، ولا يخضع إلا لسلطة هذا الأخير...هَمُّ السلطان الدائم الحيلولة دون أن يغتني أي أحد في المملكة، وألا يتزايد نفوذه بشكل كبير، إذ يكفي حدث ضئيل لقلب عرشه المتداعي"[lv]. إنه مغرب القهر والتسلط أيضا فيقول: "في هذه الحقول الغنية (قرب طنجة) التي مررت بها، يكاد نهب الجوالة من جهة، وتشدد بيت مال الدولة من جهة أخرى، أن يتركا الفلاح دون أن يجد ما يسد به رمقه"[lvi]. وهو كذلك مغرب المعاداة للأجنبي، فمن خلال وصفه لمدينة شفشاون يقول: "...مشهورة بعدم تسامحها، لا يزال يحكي الناس عما لقيه ذلك الإسباني ذو الحظ السيئ من عذاب أثناء محاولة دخول المدينة، وحتى اليهود الذين يسمح بوجودهم فهم معرضين لأقبح المعاملات. يعيش هؤلاء اليهود متجمعين في ملاحهم، ولا يمكنهم مغادرته دون تعرضهم للرشق بالحجارة...عبر طول أراضي الأخماس لم يمر أحد بجواري دون أن يسبني بعبارة الله يحرق بوك اليهودي"[lvii].

لم تخل رحلة "دو فوكو" من استحضار الموروث الثقافي الفرنسي منذ الفقرات الأولى من كتابه، عبر التأكيد على التعصب الديني والهمجية التي عرفهما المغرب لقرون، مضيفا نعتا جديدا هو رفض الغريب واستبطان العداوة له، أو الدأب على النظر إليه باعتباره عدوا غازيا. ومع هذه النعوت لا يَمثُل المغرب في وعي المسافر وناظريه إلا في صورة البلد الموزع في قسمة ثنائية، بلاد المخزن وبلاد السيبة[lviii]. وبتكرار الدخول والخروج من المجالين يصبح مغرب "دو فوكو" مجالا لانتشار الفوضى وانعدام الأمن. فهاهو خلال وصفه لمدينة تازة وتصرف "غياتة" بها يقول: "إنه لمنظر غريب أن ترى أولئك الرجال يتجولون بسلاحهم داخل المدينة، فمن الصعب أن تعبر عن الرعب الذي يعيش فيه السكان، لذلك فهم لا يحلمون إلا بشيء واحد هو مجيء الفرنسيين"[lix].

لا تختلف ملاحظات "دو فوكو" عن الانطباعات الأوربية العامة التي سادت عن المغرب بوصفه بلدا متوحشا مبتور الأوصال، قبائله في حالة تذمر دائم ترفض الاستكانة إلى سلطة مركزية موحدة، فهي مجبولة بالفطرة على ذلك، وبالتالي تبقى فكرة الدولة المغربية بعيدة عن هذه الأرض التي تعيش خارج الزمن الأوروبي، فهي بلد شاسع، سكانه هشيم بشري ينتظم في شكل قبائل لم تتمكن من الارتقاء بعد إلى فكرة الدولة/ الأمة.

بالمقابل حاول "دو فوكو" -قدر الإمكان- تجسيد الأخلاقيات الفرنسية داخل مستوطناتها، بتغليف المشروع الاستعماري الفرنسي بعرف مسيحي، حيث تكون فرنسا قادرة على منح

مستوطناتها إداريين أكفاء في مستوى الأخلاق المسيحية، قادرين على كسب ثقة المسلمين[lx].

لتتحول فرنسا إلى المخلص المقدس للمغاربة والمغرب، الذي يشبه قطعة فرنسية غابرة، فخلال زيارته لشفشاون لم يخف "دو فوكو" إعجابه بمناظرها الطبيعية العتيقة قائلا: "كان مظهر المدينة خلابا بقصبتها القديمة ذات المظهر الفيودالي، ومنازلها المغطاة بالقرميد وجداولها المتدحرجة من جميع الجهات، كل هذا يجعل المرء يتخيل نفسه أمام نهر الراين بدل إحدى قرى الريف الأكثر تعصبا"[lxi].

يبدو أن "دو فوكو" لم يكتب رحلته لتسلية جمهور القراء الأوربيين فقط، بل من أجل تقديم عمل استخباراتي فرنسي لمساعدة أصدقائه العسكريين أيضا بغية تسهيل المشروع الاستعماري الرامي إلى تحقيق حلم الإمبراطورية الفرنسية بشمال إفريقيا، فجاء كتابه حاملا لكل ما قد يساعد ويمهد الطريق لغزو المغرب، الذي ظل إلى عهد قريب مجهولا وغير مكتشف، وهو ما يظهر من خلال رسوماته الدقيقة التي وصلت إلى 101 رسما، وأربع صور عكست نضج التجربة الاستعمارية الفرنسية في تعاملها مع مستعمراتها. وبالرغم من أن كتابه لم يوح بصورة جديدة، إذ عمل فقط على اجترار نفس النظرة القديمة وتكرار "الخطأ" نفسه بالتركيز على طابع العنف والتوحش، فقد نقلنا في رحلته من السلطة والعنف العمليين إلى السلطة والعنف النظريين، ذلك أن المشروع الاستعماري في بدايته أراد فهم ميكانيزمات التركيب الاجتماعي من عادات وتقاليد وممارسات لكي يفرغها من محتوياتها ويدمجها في كيانه تمهيدا لسياسة الإلحاق.

فكانت رحلة "دو فوكو" أول عمل إثنوغرافي حول المغرب، استثمرته الرحلات اللاحقة المعروفة "بطريق السفراء"، والتي ستمد الرأي العام الفرنسي بالعناصر المؤسسة لصورة المغرب مع ما كتبه كل من "گابرييل شرمس" (G. Charmes) 1887م، و"بيير لوتي" (Pierre Loti) 1890م، و"شيفريون" (Chevrillon) 1905م، والتي ستلهم أغلب أعمال السينمائيين الأوربيين عامة والفرنسيين خاصة في وقت لاحق للقدوم إلى المغرب وملاحقة سراب هؤلاء الرحالة.

خلاصة:

هكذا تحول المغرب نتيجة التطورات الاقتصادية والسياسية والفكرية التي شهدتها فرنسا خلال القرن 19م من دولة مجاورة ذات سيادة وتاريخ ضارب في القدم إلى مسألة سياسية معقدة ومحط تنافس محتدم بين عدد من دول شمال الضفة المتوسطية، فتوالت الرحلات

الاستكشافية نحوه -خاصة بعد سقوط الجزائر في قبضة الاحتلال الفرنسي- أملا في استكشاف مغرب يغري البرجوازية الفرنسية بالاحتلال، ويقنع الرأي العام الميتروبولي بضرورة تحضر هذه البقعة المجهولة والقريبة في الآن نفسه.

ورغم تملك غالبية زوار المغرب الرغبة في التعرف والتعريف بهذا البلد القريب إلا أن انتاجاتهم لم تكن وصفا جغرافيا محضا يقتصر على تحديد الأماكن ومميزاتها الطبيعية فقط، بل كثيرا ما انشغل الفرنسيون خلال هذه الفترة بأخلاقيات السكان والسلوكياتهم، وأنواع ألبستهم وأنماط عيشهم... دون التخلص من الموروث الثقافي الأوربي ونظرته التقليدية التي اعتبرت المغرب جزء من الشرق، بكل ما يمثله من رغبة في السفر، وبحث عن الغموض والعتاقة والاختلاف.

أنتجت هذه الرحلات صورا مشوهة أحادية الجانب حول المغرب الغرائبي والبدائي والمتوحش... بكل ما تحمله هذه النعوت في الوعي الجمعي الفرنسي من تفوق وغموض واستغراب، ما أنتج أحكاما قيمية اعتمادا على أوصاف جاهزة وفضفاضة تشاركها المغرب مع باقي الشعوب المستعمَرة.

عكست هذه الصور الفترة التاريخية التي برزت فيها، والممتلئة بالتوجس والتنافس والغرور، الشيء الذي وضعنا أمام خطاب استعماري واضع المعالم، تحول إلى قطاع وظيفي مهمته البحث عن روح المغرب انطلاقا مما دونته أقلام الرحالة والمستكشفين، وما خطته ريشات الرسامة والفنانين، فكانت عادات السكان وتقاليدهم وأبسط ممارساتهم اليومية محط دراسة وانتقاد وأحكام "عنصرية" ترسخت في الذاكرة الجماعية للإنسان الأوربي، وتحولت إلى مسلمات لا يرقى إليها الشك، وبالتالي لم يكن على باقي وسائل الدعاية والإعلام التي ستأتي لاحقا سوى استكمال هذه الصورة وضمان شيوعها بين مختلف الأوساط الثقافية والاجتماعية الكولونيالية.

الهوامش والإحالات:

[i] الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، القسم الثالث، الجزء التاسع، دار الكتاب الدار البيضاء، 1997، ص 101.

[ii] ابن محمذن محمدو، **المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر: قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، السويسي، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 8، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 2001، ص 86.

[iii] نفس المرجع، ص ص 89- 90 .

[iv] من أهم هذه المجلات المتخصصة نذكر: حوليات الرحلات **(Annales des voyages)** 1865-1816، ونشرة الجمعية الجغرافية الباريسية **(Bulletin de la société de géographique de Paris)** 1821- 1865، والمجلة الاستعمارية **(Revue coloniale)** 1859-1843، ومجلة حول العالم **(Tour de Monde)** 1860- 1914 ، ومجلة الجغرافيا **(Revue géographique)** 1861- 1875.

ابن محمذن محمدو، مرجع سبق ذكره، ص 90 .

[v] Hardy Georges, "L'âme marocaine d'après la littérature française", in **Bulletin de l'enseignement public au Maroc**, n°74, Editeur Emile Larous, Paris, Avril 1926.

[vi] انطلاقا من أربعينيات القرن 19 بدأ يزور المغرب عدد من الروسيين، كان من أبرزهم الأديب "بوتكين" الذي قام برحلته لطنجة سنة 1854م، وخصص لها فصلا كاملا في مذكراته "رسائل من إسبانيا"، التي نشرت في سان بيترسبورك سنة 1857م.

العطاوي عبد الرحيم، "الرحلات الأوروبية"، ضمن **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والشر، نشر مطابع سلا، 2001، الجزء 13، ص 4303.

[vii] شاوش خالد، "الرحلات الأوربية إلى المغرب"، ضمن **معلمة المغرب**، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 2001، الجزء 13، ص 4297.

[viii] نجمي عبد الله، "الرحلات الفرنسية إلى المغرب"، ضمن **معلمة المغرب**، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 2001، الجزء 13، ص 4299.

[ix] أورده: بوطالب إبراهيم، "البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية : حصيلة وتقويم"، ضمن **البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم: أعمال ندوتي البحث الغربي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية، أكتوبر 1986 وثلاثون سنة من البحث الجامعي بالمغرب، دجنبر 1986**، تقديم محمد المنصور، محمد كنبيب وعبد الأحد السبتي، ندوات ومناظرات؛ 14، الرباط :كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989، ص 111.

[x] نفس المرجع، ص 112.

[xi] Laroui Abdallah, **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain: 1830-1912**, éditeur F. Maspero, Paris, 1977, p 28.

[xii] بوراس عبد القادر، "آفاق وحدود استثمار تقارير ضباط الشؤون الأهلية في كتابة التاريخ"، ضمن **وثائق عهد الحماية رصد أولي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 57، 1996، ص ص 92- 93.

[xiii] العلوي سعيد بنسعيد، "صورة المغرب في الاستشراق الفرنسي المعاصر"، ضمن **المغرب في الدراسات الاستشراقية**، أعمال الندوة السادسة التي انعقدت في مراكش يومي 5 و6 أبريل 1993، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1995، ص ص 40 -41.

[xiv] Machat (J), "La Géographie physique du Maroc", in **Revue générale des sciences pures et appliquées**, n°1, 11e année, 15 Janvier 1903, tome quatorzième, Librairie Armand Colin, 1903, p 15.

[xv] حمان عبد الحفيظ، "رحلات الأوروبيين إلى شمال إفريقيا في مطلع القرن التاسع عشر: نموذج رحلة دومينكو باديا (علي باي) إلى المغرب بين 1803- 1807"، ضمن **ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي**، بين 31 أكتوبر و2 نونبر 1999، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 2004، المجلد الثاني، ص 137.

[xvi] ابن محمذن محمدو، مرجع سبق ذكره، ص 86.

[xvii] نفس المرجع، ص ص 92-94.

[xviii] Erckmann Jules, **Le Maroc Moderne**, Editeur Challamel Ainé, Paris, 1885, p 4

[xix] Bernard Augustin, "Les Productions naturelles l'agriculture l'industrie et le commerce au Maroc", in **Revue général des sciences pures et appliquées**, tome XIV, n°2, 14e année, 30 janvier 1903, p 84.

[xx] Ibidem.

[xxi] البلغيتي محمد العلوي، **فاس مقام العابرين: دراسة في كتابة الاختلاف**، ترجمة محمد الشريكي، إفريقيا الشرق، 1990، ص 13.

[xxii] الحجمري عبد الجليل، "صورة المغرب في الأدب الفرنسي"، ضمن **مجلة الزمان المغربي. دفاتر أدبية**، العدد الأول، السنة الأولى، 1979، ص ص 73- 74.

[xxiii] Raoul Alain, **Les orientalistes sont des aventuriers**, Guirlande offerte à Joseph Tubiana par ses élèves et amis, Saint-Maur, Éditions Sépia, 1999, p 1.

[xxiv] Zurlo Yves, "La Représentation iconographique du marocain dans l'Espagne colonisatrice (1859-1975)", in **Transitions, transgressions dans l'iconographie hispanique moderne et contemporaine**, collation Hispania, Editions Lansman iconographie hispanique, 2006, p 71.

(xxv) دريش جان، (تقديم)، عياش ألبير، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين السعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1985، ، ص 14.

(xxvi) بوزوية سمير، مكر الصورة: **المغرب في الكتابات الفرنسية : (1832-1912)**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،2007، ص 17.

(xxvii) إدوارد سعيد، **الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد عناني، دار بنجوين العالمية، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 2006، ص277.

(xxviii) بوراس عبد القادر، مرجع سبق ذكره، ص 94.

(xxix) نفس المرجع، ص 95.

(xxx) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص 41.

(xxxi) نجمي عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص 4301.

(xxxii) يذهب عبد الله العروي بعيدا في هذه النقطة ويأخذ موقفا معارضا، إذ يعتبر الأوصاف الطبيعية والمادية الواردة بهذه الرحلات لا تسلم هي الأخرى من افتقاد الموضوعية، فحين نقف على صورة الغنى والازدهار التي ألصقها "دو فوكو" بالمغرب ألا نتعجب لها والبلاد خارجة لتوها من خمس أو سبع سنوات عجاف؟ ألا نتساءل هل هي مجرد أحكام سياسية يقصد بها صاحبها إغراء بلده بغنيمة أقرب إليه من الفم لليد ؟ وكذلك الشأن بالنسبة لأوصاف الرحالة لأحوال المغرب عام 1908م، فهي توهم بصورة بلد مزدهر، في حين تصف الصحافة بلدا على حافة الخراب، وربما ذلك راجع إلى تعميم ملاحظات لا تهم سوى منطقة معينة أو لا تصدق إلا على فترة محدودة.

Laroui Abdallah, op-cit, p 35.

(xxxiii) نجمي عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص 4301.

(xxxiv) الحجمري عبد الجليل، مرجع سبق ذكره، ص 74.

(xxxv) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص 41.

(xxxvi) Bazin René, **Charles De Foucauld explorateur du Maroc ermite au Sahara**, Plon-nourrit et Cie imprimeurs-éditeurs, Paris, 1921, pp 13-14.

(xxxvii) بوزويتة سمير، مرجع سبق ذكره، ص 100.

(xxxviii) Belles Histoires et Belles Vies, n° 15 -Collection **Charles de Foucauld**, L'abbé Jean Vignon, (S.D), p 9.

(xxxix) السويسي محمد، "معالم الطريق نحو (إسلاموفوبيا) في المجتمعات الإسلامية"، **جريدة العلم**، العدد 23164، السنة 68، الجمعة 13 مارس 2015، ص5.

[xl] السبتي عبد الأحد، **بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الحماية**، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2009، ص36.

[xli] L'abbé Jean Vignon, op-cit, p 12.

[xlii] من الجدير بالذكر الإشارة إلى أن عدد من الرحالة الفرنسيين لجئوا إلى التنكر في شخصيات وألبسة شتى، فإلى جانب تنكر دو فوكو، فقد عمل "ماركيز دوسيكونزاك" على ارتداء أسمال الفقراء ومشي حافي القدمين طورا، وتخفى في جبة الزعماء طورا آخر، كما سار "جانتيل" بلباس عامة المسلمين.

نجمي عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص 4300.

[xliii] Vircondelet Alain, **Charles de Foucauld comme un agneau parmi les loups**, Editions le rocher, Monaco, 1997, p 83.

[xliv] حجي محمد (تقديم)، شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب 1883-1884**، ترجمة المختار بلعربي، إشراف الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1999، ص 5.

[xlv] Bazin René, op-cit, 18.

[xlvi] Vircondelet Alain, op-cit, p 83.

[xlvii] Ibid, p 87.

[xlviii] Ibid, p 89.

[xlix] Bazin René, op-cit, pp 76-77.

[l] Ibid, p 81.

[li] السبتي عبد الأحد، مرجع سبق ذكره، ص37.

[lii] بوزويتة سمير، مرجع سبق ذكره، ص 108.

[liii] Sebti Abdelahad, "Ztata et sécurité du voyage une pratique judiciaire Marocaine", in **Hesperis-Tamuda**, Vol XXX, Fascicule 2, 1992, p 38.

[liv] بوزويتة سمير، مرجع سبق ذكره، ص 131

[lv] Foucauld Charles de, **Reconnaissance au Maroc, 1883-1884**, Edition Challamel, Paris, 1888, p 24.

[lvi] Ibid, p 2.

[lvii] Ibid, p 9.

[lviii] العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص 41.

[lix] السبتي عبد الأحد، مرجع سبق ذكره، ص 83.

[lx] بوزويتة سمير، مرجع سابق، ص 224.

[lxi] Foucauld Charles de, op-cit, p 8.